الصلاة المقسومة

يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

٤ «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل.

فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين. قال الله عز وجل: حمدنى عبدى.

فإذا قال : الرحمن الرحيم .قال الله عز وجل: أثنى علىَّ عبدى.

فإذا قال: مالك يوم الدين.قال الله: مجدنى عبدى.

فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين . قال الله: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل.

وإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الله عز وجل :« هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»[(١)] .

فاتحة الكتاب هى أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها ، فأنت فى كل ركعة تستطيع أن تقرأ آيات من القرآن الكريم ، تختلف عن الآيات التى قرأتها فى الركعة السابقة، وتختلف عن الآيات التى قرأتها فى باقى صلواتك.

ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ،ولذلك قال رسول الله ﷺ : «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج -ثلاثاً -غير تمام »[(٢)] .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٢٤١،٢٨٥،٤٦٠)، وابن ماجه فى سننه (٣٧٨٤) وغيرهم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) هذا بداية الحديث القدسى الذى معنا، وقد سبق تخريجه.

أى : غير صالحة.

فالفاتحة أم الكتاب التى لا تصلح الصلاة بدونها.

والحق سبحانه لم يقل فى الحديث القـدسى : قسمت الفاتحة بينى وبين عبدى ،ففاتحة الكتاب هى أساس الصلاة ،وهى أم الكتاب.

والصـلاة هى إدامة ولاء العبـودية للحق تبـارك وتعالى ،وهى أيضـاً استحضـار العبد وقفته بين يدى ربه، وحينـما يقف العبد بين يدى الله ، لابد أن يزول كل مـا فى نفسـه من كبـرياء، ويدخل بدلاً منـه الخشـوع والخضوع والذلة لله، والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذى يقف أمامه.

الخشوع يجعل الإنسـان يستحضر عظمة الحق سبـحانه ، ويعرف ضآلة قيمتـه أمام الحق سبحانه ومدى عجـزه أمام خالق هذا الكون ، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة.

ذلك أننا نعيش فى عـالم الأغيار، ولذلك فلنخضع للذى لا يتـغير ؛ لأن كل ما يحصل عليه الإنسان هو من الله ،وليس من ذاته.

والذى يغترون بالأسباب نقول لهم: عـبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالقها ؛ لأن الأسباب لا تعمل بذاتها

ولذلك لابد أن نفهم أن الإنسـان الذى يستعلى بالأسبـاب سيأتى وقت لا تعطيه الأسباب ، فالإنسـان إذا بلغ فى عينه وأعين الناس مرتبة الكمال اغتر بنفسه.

نقول له: لا تغتر بكمـالات نفسك ؛ فإن كانت موجودة الآن فستـتغير غداً، فالخشوع لا يكون إلا لله.

والخاشـع هو الطائع لله، الممتنع عن الحـرام ، الصابر علـى الأقدار ، الذى يعلم يقيناً داخل نفسه أن الأمـر لله وحده، وليس لأى قوة أخرى ، فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له.

والصلاة تهب المؤمنين الاطمئنان، فالمؤمن يذهب إلى الخالق ليسأله أن يخفف عنه الهمَّ والحزن، وقد كان رسول الله ﷺ أول من يفعل ذلك، فكان إذا ما حزبه أمر قام إلى الصلاة.

وما معنى حزبه أمر ؟

أى : إن جاءه شيء أو أمر ، وكان فوق طاقته وفوق أسبابه، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً تجاهه، وتضيق عليه الأمور.

فلماذا لا يتبع الواحد منا رسول الله ﷺ كأسوة حسنة ؛ فإن قابل أمرًا مكروها وشاقًا يقول: إن لى ربًا أذهب إلى بيته وأصلى فأقف فى حضرته، فتُحلّ أصعب وأعقد المشكلات.

إذن : فساعة يأتينا أمر شديد ، لابد أن نتجه إلى الله عز وجل ، وأفضل مكان يلتجئ فيه إلى الله تعالى هو بيته.

وبعض من الذين يحترفون الجدل واللجاجة يقول: ماذا سيفعل الله لى، أو لذلك الذى يعانى من شيء فوق طاقته؟ لقد دخل المسجد وخرج كما هو.

ونقول: هذا الظاهر من الأمر ، ولكنك لا تعرف ماذا حدث في داخله، أنت تتحدث عن العالم المادى الذى فيه العلاجات المادية، ولكن الله سبحانه وتعالى يعالج داخل النفس دون أن تحس أنت؛ لأن المساجد هى مطالع أنوار الله تعالى، وهى التى يتنزل فيها النور على النور الذى يُصلح الحياة الدنيا ويرتقى بها ؛ لأن أنوار الله تدخل القلوب فتجعلها تطمئن ، وتدخل النفوس فتجعلها تحس بالرضا والأمن.

نحن فى المساجد نعيش فى حضرة الحق تبارك وتعالى نتلقى منه التجليات والفيوضات التى تعالج نفوسنا أكثر مما يعالجها أبرع أطباء العالم.

أنت فى بيت الله تكون فى ضيافة الله ، وأنت تعلم أنه إن جاءك أحد

فى بيتك على غير دعوة فأنت تُكرمه ، فإذا كان المجىء على موعد فكرمك يكون كبيراً ، فما بالنا بكرم من خلقنا جميعاً؟

إن الحق سبحانه وتعالى يجزيك من فيض كرمه من ساعة أن تنوى زيارته فى بيته، فأنت فى صلاة منذ أن تبدأ فى الوضوء فى بيتك استعداداً للصلاة فى المسجد؛ لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يطيل عليك نعمة أن تكون فى حضرته.

فالصلاة إذن خير أراده الله لك حتى لا تأخذك أسباب الحياة، وأراد سبحانه بها أن تفيق إلى نهجه الذى يصلح بالك، ويصلح الدنيا لك وبك فلا تأخذك الأسباب ، ولا تشغلك الدنيا فتنسى أن صيانة نفسك بيد الله سبحانه.

إذن : فالله سبحانه وتعالى يريد منا لولاء دائماً ، فإذا كنت تعتز بالله فأنت تديم الولاء له باستمرار الصلاة ، وأنت حين تسجد لله وتتذلل له، فإنه سبحانه يزيدك عزة ، ويكون معك دائماً ،ويقيك ذل الدنيا.

إن الإنسان إذا ما أراد أن يقابل عظيماً من العظماء فهو يطلب المقابلة ، وقد يقبل هذا العظيم مبدأ اللقاء وقد لا يقبل ، فإن قبل حدد اليوم والساعة والمكان ووقت الزيارة، فإن أردت أن تطيل فهو يقوم واقفاً إعلاناً بأن الزيارة قد انتهت.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بمطلق الكرم لا يعامل خلقه هكذا ، فبيته مفتوح دائماً حين يدعوك للصلوات الخمس، فهذا أمر ضرورى ، ولكن بين الصلوات الخمس إن أردت لقاء الله فسبحانه يلقاك فى أى وقت ، وتدعوه بما تشاء ، وتطيل فى حضرته كما تريد ، ولا يقول لك أحد: إن الزيارة قد انتهت.

obeikan.com

يقول الشاعر:

حَسْبُ نَفْسى عِزاً بأنِّى عبدٌ
يَحْتفى بى بِلا مواعِيدَ ربُّ
هُوَ فى قُدْسِه الأعزِّ ولكِنْ
أنا أَلْقى متَى وأينَ أُحِبُّ

❊ ❊ ❊

والحق سبحانه يقول فى هذا الحديث القدسى : « **ولعبدى ما سأل**» .

فالله سبحانه وتعالى فى عطائه يحب أن يطلب منه الإنسان ، وأن يدعوه ويستعين به، وهذا يوجب الحمد لأنه يقينا الذل فى الدنيا ، فأنت إن طلبت شيئاً من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعداً أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لِيُنهى اللقاء.

ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائماً، فأنت بين يديه عندما تريد، وترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء، فيعطيك ما تريده إن كان خيراً لك ، ويمنع عنك ما تريده إن كان شراً لك.

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله ، فيقول:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) ﴾ . (غافر : ٦٠)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ . (البقرة: ١٨٦)

الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ،والدعاء هو طلب الشيء، والطلب

يقتضى طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوباً منه ، والطالب هو مَنْ يدعو ، والمطلوب منه: هو من ندعوه ونسأله، والمطلوب : هو الشىء الذى نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث.

وقد دعا زكريا ربه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾.

(آل عمران: ١٣٨)

هذا كان دعاء زكريا ، فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن الله يجيب الدعاء؟

إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يا رب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك؛ لأنك يارب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام،لا لشىء من أمور كقُرَّة العين،والذكر،والعز،وغيرها.

إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حمل منهجك فى الأرض.

«حمدنى عبدى»

فالله محمود لذاته،ومحمود لصفاته،ومحمود لنعمه ،ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه ،ومحمود لقضائه.

الله محمود قبل أن يخلق مَنْ يحمده ، ومن رحمة الله سبحانه أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما: الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرًا على جميل فعله تظل ساعات وساعات تعد كلمات الشكر والثناء ،وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس ، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب ملىء بالثناء والشكر.

ولكن الله سبحانه وتعالى جَلَّتْ قدرته وعظمته ، نعمه لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، علَّمنا أن نشكره فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله.

obeikan.com

ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركه دون أن يحددها بكلمتين لكان من الصعب علىَ البشر أن يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى.

فمهما أوتِى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير، فهم عاجزون عن أن يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم.

فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته؟

والحقَ تبارك وتعالى شاء عَدْله أن يُسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد له، فيعلمنا فى أول كلماته فى القرآن الكريم أن نقول : ﴿ الحمد لله ﴾ ؛ ليعطى الفرصة المتساوية لكل عبيده ، بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد، ومَنْ أُوتِى البلاغة ، ومَنْ لا يحسن الكلام.

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علَّمنا كيف نحمده ، وليظل العبد دائماً حامداً . . ويظل الله دائماً محموداً . . فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم.

خلق لنا السموات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة.

وهذه نعمة يستحق سبحانه الحمد عليها ؛ لأنه جَلَّ جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله.

بل إن الله عز وجل قبل أن يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقته الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يشقى ، فقد خُلِق فوجد ما يأكله وما يشربه ، وما يقيم حياته، وما يتمتع به موجودًا وجاهزًا ومُعداً قبل الخلق.

وحينما نزل آدم وحواء إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما ، فوجدا

ما يأكلانه وما يشربانه، وما يقيم حياتهما ، ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنسانى ، وخُلقت بعده لهلك الإنسان وهو ينتظر مجىء النعمة.

بل إن العطاء الإلهى للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يُخلق فى رحم أمه، فيجد رحماً مستعداً لاستقباله ، وغذاء يكفيه طول مدة الحمل ، فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله فى صدر أمه لبناً ينزل وقت أن يجوع ، ويمتنع وقت أن يشبع.

وينتهى تماماً عندما تتوقف فترة الرضاعة ، ويجد أباً وأماً يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع أن يعول نفسه.

وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف، وقبل أن يستطيع أن ينطق : (الحمد لله).

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنْعَم عليه دائماً ، فالإنسان حين يقول: «الحمد لله» فلأن موجبات الحمد -وهى النعمة- موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى.

وآيات الله سبحانه وتعالى فى كونه تستوجب الحمد، فالحياة التى وهبها الله لنا ، والآيات التى أودعها فى كونه تدلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، فالكون بشمسه وقمره ونجومه وأرضه وكل ما فيه مما يفوق قدرة الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يدعيه لنفسه.

فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعى أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم، أو وضع الأرض ، أو وضع قوانين الكون، أو أعطى الأرض غلافها الجوى ، أو خلق نفسه أو خلق غيره.

ونستطيع أن نمضى فى ذلك بلا نهاية ، فنعم الله لا تُعدُّ ولا تُحصى ، وكل واحدة منها تدلُّنا على وجود الحق سبحانه وتعالى ، وتعطينا الدليل الإيمانى على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وأنه لا أحد يستطيع أن يدَّعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالقضية محسومة لله.

و « الحمد لله » لأنه وضع فـي نفوسنا الإيمان الفطرى، ثم أيده بإيمان عقلى بآياته فى كونه.

بل إن كل شيء فى هذا الكون يقتضى الحـمد ، ومع ذلك فإن الإنسان يمتـدح الوجود وينسى الموجود. وكل شيء فى هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه ، وإنما الذى وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق . . بل قل الحمد لله الذى أوجد فى الكون ما يُذكِّرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق.

ومنهج الله سبـحانه وتعالى يقـتضى منا الحمد ؛ لأن الله أنزل منهـجه ليرينا طريق الخير، ويبـعدنا عن طريق الشر ،وبيَّن لنا ماذا يريد الحق منا، وكيف نعـبده . . وهذا يسـتوجب الحـمد، وأعطانا الطريق، وشـرع لنا أسلوب حياتنا تشريعاً حقاً.

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائماً من نعم الله، فكأن العبودية لله تعطيك ، ولا تأخذ منك، وهذا يستوجب الحمد.

وعندما نقول : «الحمد لله» فنحن نعبـر عن انفعالات متعددة، هى فى مجـموعها تحـمل العبودية والحب والثناء والشـكر والعرفان ، وكثـير من الانفعـالات التي تملأ النفس عندمـا تقول « الحمـد لله» كلها تحـمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه.

هذه الانفعـالات تأتى من النفس وتـستـقر فى القلب، ثم تفـيض من الجوارح على الكون كله.

فالحـمد ليس ألفاظاً تُردَّد باللسـان ، ولكنها تمر أولاً على العـقل ليعى معنى النعم . . ثم بعد ذلك تستـقر في القلب فينفـعل بها . . وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ويهتـز جسدى كله ، وتفيض الدمعة من عينى . . وينتقل هذا الانفعال كله إلى من حولى.

« أثنى عليَّ عبدى »

إذا قال العبد في صلاته « الرحمن الرحيم» قال سبحانه: « أثنى عليَّ عبدى».

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ (البقرة: ٢١٨)

ما هى الرحمة؟

الرحمة : هى ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، أما الشفاء : فهو أن تكون مصاباً بداء ويُبرئك الله منه.

والحق سبحانه يقول:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾. (الإسراء: ٨٢)

وقد قدَّم الله سبحانه وتعالى الشفء على الرحمة؛ لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم ، ولكن لابُدَّ من الشفاء أولاً.

وعندما نزل القرآن كانت الأمراض والداءات تملأ المجتمعات، الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الإنسان للإنسان، وغير ذلك من أمراض المجتمع . . فجاء الإسلام أولاً ليشفى هذه الأمراض إذا اتبع منهجه.

ثم بعد ذلك تأتى الرحمة ، وتمنع عودة هذه الداءات، فإذا حدثت غفلة عن منهج الله ، جاءت الداءات والأمراض، فإذا عُدْتَ إلى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء.

والحق سبحانه يُطمئن خلقه فيقول:

﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾. (الأنعام: ١٢)

وهو قول ليُطمئن به الحق عباده حتى لا يظن الناس أن الله يعاقبهم دون

حساب ؛ لأنه الحليم ذو الفضل وهو القائل:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾. (يونس : ٥٨)

ولولا رحمة الله التى سبقت عدله ما بقى للناس نعمة، وما عاش أحد على ظهر الأرض ، فالله جل جلاله يقول:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

(النحل : ٦١)

فذنوب الإنسان فى الدنيا كثيرة . . إذا حكم فقد يظلم، وإذا ظن فقد يُسيء، وإذا تحدث فقد يكذب ، وإذا شهد فقد يبتعد عن الحق، وإذا تكلم فقد يغتاب.

هذه ذنوب قد نرتكبها بدرجات متفاوتة ، ولا يمكن لأحد منا أن ينسب الكمال لنفسه،حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الطاعة لا يصلون إلى الكمال ، فالكمال لله وحده.

ورسول الله ﷺ يقول: « **كل ابن دم خطّاء ،وخير الخطائين التوابون**»(١).

والحق سبحانه وتعالى تواب برحمته؛ لأن هناك من يعفو ويظل يُمُنُّ عليك بالعفو، حتى أن المعفو عنه يقول: ليتك عاقبتنى، ولم تمن علىَّ بالعفو كل ساعة.

لكن الحق سبحانه وتعالى تواب رحيم ، يتوب على العبد ويرحمه، فيمحو عنه ذنوبه.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٨/٣) والترمذى فى سننه (٢٤٩٩) وابن ماجه فى سننه (٤٢٥١) قال الترمذى : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة».

وأنت حين تسقط فى معصية تستعيذ برحمة الله من عدله ؛ لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية.

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا تمنعنا المعصية عن أن ندخل إلى كل عمل باسم الله . . فعلَّمنا أن نقول: « بسم الله الرحمن الرحيم» لكى نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله ، وأن المعصية لا تمنعنا من الاستعانة فى كل عمل باسم الله؛ لأنه رحمن رحيم ، فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية فى الاستعانة به سبحانه وتعالى.

ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذى أوجدك من عدم، وأمدَّك بنعم لا تُعدُّ ولا تُحْصَى.

أنت تحمده على هذه النعم التى أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى فى ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر ما فيها من رحمة.

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذى استدعاهم جميعاً إلى الوجود؛ ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته ، وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط، والمطر ينزل على من يعبدون الله ، ومن لا يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يَقُلْها.

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخلقه جميعاً ، وهذه رحمة ، فالله رب الجميع من أطاعه ومَنْ عصاه، وهذه رحمة ، والله قابل للتوبة ، وهذه رحمة.

إذن: ففى الفاتحة تأتى « الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله فى ربوبيته

لخلقه، فهو يمهل العاصى ، ويفتح أبواب التوبة لكل مَنْ يلجأ إليه.

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه ، وهذه رحمة تستوجب الشكر والثناء على ربه.

« مجَدنى عبدى»

فإذا قال العبد « مالك يوم الدين» قال سبحانه : مجدنى عبدى.

إن « مالك يوم الدين» تستحق منا الحمد وتمجيد الله سبحانه ، والثناء عليه ووصفه بكل صفات الكمال.

لو لم يوجد يوم للحساب ، لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً، دون أن يُجازى على ما فعل ،ولكان الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من مُتَع دنيوية كثيرة إرضاء لله قد شقى فى الحياة الدنيا .

ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو مالك يوم الدين، أعطى الاتزان للوجود كله، هذه الملكية ليوم الدين هى التى حَمتْ الضعيف والمظلوم، وأبقت الحق فى كون الله.

إن الذى منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف ، والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً ، وأن الله سبحانه هو الذى سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره؛ لأنه يخشى الله ويُعطى كل ذى حق حقه، ويعفو ويسامح.

إذن: كل من حوله قد استفاد من خُلقه الكريم ، ومن وقوفه مع الحق والعدل.

أما الإنسان العاصى فيشقى به المجتمع ؛ لأنه لا أحد يَسْلَم من شرِّه ، ولا أحد إلا يصيبه ظلمه، ولذلك فإن « مالك يوم الدين» هى الميزان.

وصف الله تبارك وتعالى نفسه في القرآن الكريم بأنه : «مالك يوم

الدين» ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده، ليس هناك دخل لأى فرد آخر . . أنا أملك عباءتى . . وأملك متاعى . . وأملك منزلى . . وأنا المتصرف فى هذا كله أحكم فيه بما أراه.

فمالك يوم الدين . . معناها أن الله سبحانه وتعالى سيُصرِّف أمور العباد فى ذلك اليوم بدون أسباب، فهو الذى يملك هذا اليوم وحده، يتصرف فيه كما يشاء.

إن الدين كله بكل طاعاته وكل منهجه قائم على أن هناك حساباً فى الآخرة ، وأن هناك يوماً نقف فيه جميعاً أمام الله سبحانه وتعالى ؛ ليحاسب المخطىء ويثيب الطائع.

هذا هو الحكم فى كل تصرفاتنا الإيمان ، فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه . . فلماذا نصلى؟ ولماذا نصوم؟ ولماذا نتصدق؟

إن كل حركة من حركات منهج الله قائمة على أساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد، والذى يجب أن نستعد له.

إن الله سبحانه وتعالى سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم، والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد، وننفق أموالنا لنعين الفقراء والمساكين.

كل هذا أساسه أن هناك يومًا سنقف فيه بين يدى الله ،والله تبارك وتعالى سماه يوم الدين ؛ لأنه اليوم الذى سيحاسب فيه كل إنسان على دينه عمل به أم ضيَّعه ، فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة، ومن أنكر الدين، وأنكر منهج الله سيجازى بالخلود فى النار.

ومن عدل الله سبحانه وتعالى أن هناك يوماً للحساب ؛ لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا فى الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا.

هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يُفلتون من عدل الله؟

أبدًا لن يفلتوا ، بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود إلى عقاب خالد، وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر فى الدنيا إلى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى فى الآخرة.

ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان ، فيُعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب ، بل إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل إنساناً يفلت من عقاب الدنيا ، فلا تعتقد أن هذا خير له بل إنه شر له؛ لأنه أفلت من عقاب محدود إلى عقاب أبدى.

إذن : فالأمر كله مردود إلى الله ، صحيح أنه فى هذه الدنيا يخلق الله الأسباب ، فالكافر تحكمه الأسباب، وكذلك المؤمن ، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة ، ولكن فى الآخرة فالأمر يختلف ، فلن يملك أحد أسباباً.

ولذلك يقول الحق سبحانه عن اليوم الآخر:

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾. (غافر: ١٦)

فالظالمون يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب.

إذن : فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل ؛ لأن الله أوجد لنا جميعاً إرادات ومرادات اختيارية ، لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾. (غافر : ١٦)

« هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ».

أنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه « رب العالمين» ، وجعلك تطمئن إلى قضائه لأنه « الرحمن الرحيم» ، أى أن ربوبيته سبحانه ليست ربوبية جبروت بل هى ربوبية «الرحمن الرحيم» .

فإذا لم تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التى تحسها وتعيش فيها ، فاحذر من مخالفة منهجه ؛لأنه « مالك يوم الدين».

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات التى فيها فضائل الألوهية ونِعَم الربوبية ، والرحمة التى تمحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب إلى محضر الشهود.. استحضرت جلال الألوهية لله ، وفيوضات رحمته، ونعمه التى لا تُعَدُّ ، وقيوميته يوم القيامة.

وهكذا فإننا عندما نقول « الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد ، وهى نعم الله ظاهرة وباطنة.

وحين نقول : « رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية فى خلقه وإخضاع كونه.

وحين نستحضر « الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الإساءة بالإحسان وفتح باب التوبة.

وحين نستحضر « مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب، وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك .

فإذا استحضرنا هذا كله نقول: « إياك نعبد» أى : أننا نعبد الله وحده.

إذن : عرفنا المطلوب منها ، وهو العبادة.

فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده ، ولكن علة الخلق ليست ؛ لأن هذه

العبادة ستزيد شيئاً فى مُلْكه، وإنما عبادتنا تعود علينا نحن بالخير فى الدنيا والآخرة، فالمأمور بالعبادة هو الذى سينتفع بها.

ورب العزة سبحانه يقول فى حديثه القدسى:

« يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً .. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[1].

فعبادتك له لن تنفعه سبحانه بشىء ولن يزيد فى ملكه شيئاً، ومعصيتك وعدم عبادتك له لن تضره بشىء ولن تنقص من مُلْكه شيئاً، فسبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك، وإنما الذنب يلحقك أنت.

والله سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة لنعبده .. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾. (الذاريات: ٥٦)

إذن: فعِلَّة الخالق هى العبادة، ولقد تم الخلق لتتحقق العبادة وتصبح واقعاً.

والعبادة هى إطاعة العابد لأمر المعبود، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية فى الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

إن هذه هى أركان الإسلام، ولا يستقيم أن ينفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/ ٩٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

إن الأركان التعبدية لازمة ؛ لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة فى الدنيا هى كل حركة تؤدى إلى إسعاد الناس وعمارة الكون.

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هى تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء فى الفقه كباب العبادات وباب لمعاملات.

لكن علينا أن نعرف أن كل شئ يأمر به الله اسمه « عبادة».

إذن : فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون.

ولذلك قلنا : إنك حينما تتقبل من الله أمراً بعبادة ما ، فأنت تتلقاه وأنت موصول بأسباب الله بحثاً عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة.

فالعبادة منهج يشمل الحياة كلها . . فى بيتك ، وفى عملك، وفى السعى في الأرض؟

ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين ، بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الإنس والجن، فهو سبحانه يريد من الإنس والجن عبادة المحبوبية . . ولذلك خلقنا ولنا اختيار فى أن نأتيه أو لا نأتيه . . فى أن نطيعه أو نعصيه . . فى أن نؤمن به أو لا نؤمن.

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار ، تتنازل عما يغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه ، وليس قهراً، فإذا تخليت عن اختيارك إلى مرادات الله فى منهجه تكون قد حققت عبادة المحبوبية لله تبارك وتعالى ، وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله ، فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيما يُقهرون عليه، ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمراد الله فى التكاليف.

ولذلك فإن الله جل جلاله يُفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد.

يقول تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾. (البقرة: ١٨٦)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) ﴾. (الفرقان: ٦٣ - ٦٥)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادًا، ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعاً يقول عبيد . . مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾.

(آل عمران: ١٨٢)

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره فى الحياة الدنيا فى العبودية، فلم يقهره فى شىء ، ولا يلزم غير المؤمن به بأى تكليف.